شبهات في تأريخ الأدبين المملوكي والعثماني
وأثرها على المناهج التعليمية الجامعية

Suspicious in the Dating of Mamluk and Ottoman literature and their Impact on Undergraduate Curricula

الدكتور: سمير عبد المالك

قسم اللغة والأدب العربي جامعة أم البواقي (الجزائر)
Samir.abdmalek@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2022/04/01 تاريخ القبول: 2022/07/31 تاريخ النشر: 2022/09/15

ملخص:

شهد الأدب تطورات واضحة بين الحاضر والماضي، ومن أبرز الفترات الزمنية التي مر بها الأدب العربي فترة العهد المملوكي والعثماني، والتي امتدت طيلة ستة قرون. وقد درج كثير من الباحثين والنقاد على الحَطِّ من أدب هذه الحقبة عن قصد أو غير قصد، فادّعى بعض المغرضين منهم أن العصر العثماني عصر انحطاط وتكلُّف، وزعموا ألّا أثر للحياة الأدبية فيه، وأنه لا يستحق البحث أو الدرس!!

وإننا وفي هذه الورقة البحثية الموسومة بـ: شبهات في تأريخ الأدبين المملوكي والعثماني وأثرها على المناهج التعليمية الجامعية نسعى إلى دحض تلك الشبهات مع تحري الدقة والإنصاف في دراستنا، وتتبع أهم المراجع الموثوقة التي أرّخت لتلك المرحلة.

- **الكلمات المفتاحية:** الأدب المملوكي ، الأدب العثماني، شبهات، المناهج التعليمية الجامعية.

Abstract:

Literature has witnessed a clear evolution between the past and the present. One of the most prominent periods in Arabic literature is the Mamluk and Ottoman eras, which spanned over six centuries. Many researchers and critics have deliberately or unintentionally belittle the literature of this era. Some of them claim that the Ottoman era is an era of decadence and sophistication, and they have pretended that there is no trace in it, and it is not worthy of research or study

This paper entitled: **Suspicious in the Dating of Mamluk and Ottoman literature and their Impact on Undergraduate Curricula** , attempts to refute these suspicions with accuracy and fairness, as it aims to scrutinize the most reliable references that dated to that period.

Keywords: Mamluk Literature, Ottoman Literature, Suspicions, University Curriculum.

مقدمة:

إنما الأمم الآداب ما بقيت فإن هم ذهبت آدابهم ذهبوا؛ فالتأريخ للأدب واللغة العربية من أبرز مقومات الأمة التي لا تزال تعتز وتفتخر بهما عبر العصور والأزمنة المختلفة، وقد شهد الأدب تطورات واضحة بين الحاضر والماضي، ومن أبرز الفترات الزمينة التي مر بها الأدب العربي: فترة العهد المملوكي والعثماني التي امتدت طيلة ستة قرون.

لقد درج كثير من الباحثين والنقاد على الحطّ من التاريخ العربي والإسلامي عبر شُبهٍ تلقفوها عن مناوئيهم وأعدائهم عن قصد أو غير قصد، فادعى بعض المغرضين أن العصر العباسي هو عصر ترف وشذوذ وانحلال، كما وصم البعض الآخر الأدب العربي في العصر العثماني خاصة بالانحطاط والتكلُّف، ورأوا أنه لا أثر للحياة الأدبية فيه، وأنه لا يستحق البحث أو الدرس؛ لأنه في نظرهم خلا مما يصح أن يُطلق عليه اسم الأدب، ولم ينجب من الشعراء مَن يستحق اسمَ الشاعر، فلم يكلِّفوا أنفسَهم مُؤْنةَ البحث، ولا مشقةَ التنقيب في دواوين الشعراء، أو الآثار الأدبية المخطوطة. (1)

وهنا تكمن **إشكالية الدراسة**؛ فالكثير من الأكاديميين وأساتذة الأدب العربي في الطور الجامعي وأثناء كتابتهم للسندات التعليمية قد انساقوا وراء هذه الشبهة ولم يتحروا الإنصاف لهذه الحقبة الزمنية ولأدبها؛ والتي يمكن أن تخضع لمعيار النقد البنّاء كغيرها من الفترات السابقة واللاحقة لها. فظهر ذلك جليا في مختلف آرائهم التي يسردونها على طلبتهم، وفي المحاضرات التي يلقونها على مسامعهم، وكذا مطبوعاتهم البيداغوجية التي وثّقت الحركة الأدبية في العصر العثماني؛ فرأوا أن هذه الحركة الأدبية شهدت تراجعا واضحا في القرون الأخيرة متهمين بذلك فترة الحكم العثماني التي جلبت معها –حسب رأيهم- التخلف والرجعية في مختلف المجالات مما أثر سلبا على الأدب والثقافة العربية!!!

بناء على ذلك فإننا وفي هذه الورقة البحثية الموسومة بـ: **شبهات في التأريخ للأدب العثماني ومدى تأثيرها في المناهج التعليمية المرحلة الجامعية أنموذجا** ، نسعى إلى إماطة اللثام عن تلك الشبهات مع تحري الدقة والإنصاف في دراستنا، وتتبع أهم المراجع التي أرّخت لتلك المرحلة بالإجابة عن الأسئلة التالية: **لماذا العصر المملوكي العثماني دون غيرهما؟ ما العوامل والأسباب التي أدت بالباحثين (الأساتذة الجامعيين) إلى اتهام هذا العصر بالرجعية والتخلف؟ هل حقيقة أن الأدب تَبَعٌ لتخلف الدولة ؟ ثم كيف كانت نظرة النقاد والباحثين إلى الأدب في تلك الحقبة؟ وأخيرا، هل من الإنصاف أن نعمم تلك الأحكام -إيجابية كانت أم سلبية- على فترة امتدت حكمها ما يقارب الستة قرون؟**

للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها فقد قسمنا ورقتنا البحثية هذه إلى أربعة عناصر أساسية نستهلها بمقدمة وعلى عجالة نبين فيها أبرز الملامح التاريخية التي سادت أثناء الحكم العثماني وأهم التطورات التي مست اللغة والأدب في تلك الفترة:

1. **لمحة تاريخية عن تاريخ الأدب العربي في العهد العثماني:**

حينما نريد أن نؤرخ للدولة الإسلامية أثناء الحكم المملوكي والعثماني الذي امتد طيلة ستة قرون (1299م- 1923م) فإنه ينبغي أن ندرك أننا نتحدث عن دولة امتدت رقعتها الجغرافية من المحيط إلى المحيط، فأراضيها تشمل أنحاء واسعة من قارات العالم القديم الثلاث :أوروبا وآسيا وأفريقيا؛ ويمكن أن نميز ثلاثة مراحل أساسية لهذا الحكم نوجزه فيما يلي: 01. قيام الدولة المملوكية العثمانية (1299–1453). 02. دور التوسع والقوة (1453–1683) 03. دور الركود (1683–1827) 04. دور الأفول والتنظيمات (1828–1908). 05. دور الانحلال وخاتمة الدولة (1908–1923)؛ فشساعة الرقعة الجغرافية للدولة وتباين فترات الحكم فيها سهل على خصومها أن يتفقوا عليها عسكريا وعلميا، حيث عانت الدولة من خسائر قاتلة على يد الأوربيين والروس أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. (2)

أما إن رجعنا للحديث عن الثقافة والأدب في هذه الحقبة فإنه قد أصابها ما أصاب الدولة من مراحل قوة وضعف، ذلك عكس ما يروجه بعض المؤرخين للأدب، وهذا ما سنلاحظه جليا في هذه الدراسة، ولعل سبب ذلك مرده – بحسب رأيي- إلى ثلاثة أمور أساسية ألا وهي: **التحامل الاستشراقي على الأدب العربي وكل ما له صلة بالموروث العربي** والسعي إلى تشويهه وبث المفاهيم الخاطئة في مناهج التعليم، والتي تقرر أن المماليك اغتصبوا الحكم، وأن عصرهم عصر تخلف وانحطاط. أما الأمر الثاني فهو **قلة الدراسات التي اعتنت بأدب الدولة العثمانية** رغم كثرة المخطوطات التي لاتزال حبيسة المكتبات والمتاحف في ربوع البلاد الإسلامية، الأمر الأخير

هو **ربط الأدب العربي بالأحداث السياسية التي مرت بها الدولة** وهذا ما سهل إطلاق أحكام عشوائية تخلو من العلمية والإنصاف، الأمر الذي قرَّره الدكتور بكري شيخ أمين في كتابه (مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني) ، حيث يقول: « ويخيَّل إلينا أنه ما من عصر من عصورنا الأدبية أصابَه من الظلم في الأحكام، والإهمال في الدراسات، ما أصاب هذا العصرَ ونال منه، والأكثر من هذا اعتقادنا الجازم أن هناك عمليةً خفيَّة تهدف إلى صرف الباحثين عن دراسة هذه الحقبة، والاكتفاء بحكم سريع ظالم عليها، ولسنا نرى لذلك سببًا ».[3]

2. **رأي الأدباء والنقاد لأدب تلك الفترة:**

وكما أشرنا إليه سابقا فقد درج كثير من النقاد والباحثين على وصم الأدب العربي في العصر المملوكي والعثماني بالانحطاط والتكلف، واتهموه بأبشع الأوصاف؛ بل إن منهم من ذهب إلى الدعوة إلى تجاوز هذه الفترة الزمنية التي لا تستحق البحث والدرس، والسبب في ذلك تأثرهم الجلي والوضح بكتاب (تاريخ آداب اللغة العربية) لمؤلفه: جرجي زيدان، ورغم جهوده المضنية والواضحة لهذا الأخير في التأريخ للأدب العربي، إلا أنه وقع في هنات أفسدت عليه فرحة الاحتفاء بمؤلفه. فالكاتب - جورجي زيدان - ما برح أن يكيل للتاريخ العربي والإسلامي تهما وشبهات حَكَم فيها على الأدب العثماني كله من المحيط الأطلسي إلى الخليج ، ومن شمال العراق إلى جنوب اليمن بأنه أدب منحط متكلف لا أثر للحياة فيه، فيقول زيدان: «فسَدَتْ ملكة اللسان، وجمدت القرائح، وأصاب الشعرَ ما أصاب سائر الآداب العربية في هذا العصر من الضعف والانحطاط؛ لمّا استولى من الجمود على القرائح، وتوالى على الأمة من الذل في تلك الفترة المظلمة.. ».[4] وقد تأثر الكاتب بمنهج المستشرقين في دراسة تاريخ الآداب العربية، وبخاصة المستشرق الألماني (بروكلمان) في كتابه (تاريخ الأدب العربي).

ومن النقاد والمؤرخين الذين انساقوا وراء رأي جرجي زيدان في التأريخ للأدبين نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

أ. **أحمد هيكل** في كتابه (تطور الأدب الحديث في مصر) الذي يقول في معرض حديثه للتأسيس للعصر الحديث: «يبدأ العصر الحديث للأدب في مصر بتلك السنوات التي شهدت خروج البلاد من ظلمات العصر التركي لتفتح عيونها على نور الحضارة الحديثة، ولتأخذ طريقها في موكب المدنية المتقدمة وذلك بعد أن أغمضت عيونها عن النور وعوقت خطاها عن السير زهاء ثلاثة قرون؛ وهي مدة الحكم التركي الكريه، ومن الممكن تحديد هذه البداية بسنوات الحملة الفرنسية سنة 1798».[5]

ب. **محمود تيمور** وإن كان نقده أقل حدة من سابقه إلا إنه انتقد تلك الحقبة ووصفها بالخمول والضعف ففي كتابه الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة قال: «ولكن هذا الأدب العربي - مع ذلك كله - تعاورته أسباب الضعف والخمول طوعًا؛ لما أصاب الأمة العربية في عهودها المغولية والمملوكية من عوامل التخلف والتفكك والجمود، فانكمش الأدب أثناء تلك العهود المظلمة في نطاق ضيق، يدور حول أغراض تافهة؛ فلا يستجيب لما يضطرم في وجدان الحياة من جوهر إنساني صميم، ولا يُسهم بقدرٍ كافٍ في توجيه اجتماعي إيجابي، يعبر عما في نفوس الناس من آلام وآمال».[6]

ج. أما **الدكتور شوقي ضيف**، فقد بوب في كتابه (الفن ومذاهبه) عنوانا تحت (العصر العثماني والعقم والجمود) وحكم على أدب العصر العثماني بالانحطاط، فيقول «واقرأ في الآثار الكتابية أثناء العصر العثماني فستجد هذه الآثار أضعف وأقل من أن تقرن إلى أي عصر من العصور السابقة ... ».[7]

د. آخر هؤلاء النقاد والباحثين ولعلنا نكتفي به **عبد المنعم خفاجي** إذ يقول عن هذه الفترة أثناء حديثه عن الأدب في سوريا ومصر: «لما جاء العصر العثماني لم يكن للأدب من يشجعه ولا للغة العربية من يعطف عليها ، وأغلق ديوان الإنشاء ، وسادت التركية والعامية ، وذهب مجد العربية وعظمتها، وأثر كل ذلك في الكتابة الفنية فأورثها ضعفاً ووهناً، وزادت قيودها الفنية التي أكسبتها سقماً وتخاذلاً وأصبحت مجرد ألفاظ لا تُكاد يُفهم منها معنى ».[8]

3. نماذج حول نظرة بعض الأكادميين الجزائريين للأدب في العصر العثماني:

إن نظرة الأكاديمي والأستاذ الباحث وآرائه البحثية للأدب العربي أثناء تخطيطه لدرسه أو كتابته للمطبوعات البيداغوجية التي يلقيها على طلبته لا تخلو هي الأخرى من علاقة تأثير وتأثر بين الأستاذ الباحث وكتبه التي صفّفها لإنجاز عمله البيداغوجي؛ إن لم أقل أنها نتيجة ترسبات علمية ومعرفية لمراحل تكوينه العلمي؛ بدءا بالمرحلة الثانوية فالجامعية.

وعليه فإن هذه العلاقة –التأثير والتأثر- بادية في مثل هذه المواقف والأفكار التي أخذها الأستاذ الجامعي مُسلَّمَات لا تقبل المناقشة أو الجدل، فنُقل لنا عن غير واحد من النقاد والباحثين أن الأدب في هذا العصر هو أدب أقل ما يمكن وصفه به أنه أدب الانحطاط والتكلف؛ وهؤلاء النقاد وغيرهم هم في ذلك تبع لمن أرخ للأدب المملوكي والعثماني فلم يكلِّفوا أنفسَهم مُؤْنةَ البحث ولا مشقةَ التنقيب.

وإني وفي هذا المطلب سأعرض بعضا الاقتباسات من محاضرات لـمقياس (النص الأدبي الحديث) خاصة، لأساتذة باحثين في قسم اللغة والأدب العربي عبر مختلف أنحاء جامعات الوطن حول هذه المسألة، والتي لم أجد لها أثرا - بحسب اطلاعي رغم تصنيف الأدب المملوكي والعثماني من الأدب العربي القديم- في محاضرات مادة الـ (نص أدبي قديم)!! مع بعض النقد والتوجيه الذي أراه كفيلا بأن ينصف أدب العصر وأن يضعه موضعا صحيحا جنبا إلى جنب مع أدب العصور العربية السابقة واللاحقة له.

1) **محاضرات في مقياس النص الأدبي الحديث للأستاذ: موسى مبرك (قسم اللغة والأدب العربي جامعة محمد لمين دباغين سطيف)**

يقول الأستاذ في محاضرته الأولى التي مهد بها لدراسة مقياس النص الأدبي الحديث «ساءت الأحوال السياسية قبل العصر الحديث في البلاد العربية خاصة في مصر، وذلك بسبب حكم المماليك والأتراك، وانعكس ذلك سلبا على الأدب شعره ونثره، يقول حامد حفني داود: "كان الشعراء قلة وكانوا شعراء شعب لا شعراء بلاط أو ديوان، وندر المجودون منهم وانحطّ الذوق الأدبي بسبب انتشار الألفاظ التركية في ثنايا اللّغة العربية ولا سيّما العامية". لهذه العلل حرص الشعراء على تجويد ألفاظهم وتنميق عباراتهم، **حتّى أصبح الشعر عبارة عن حلى لفظية خالية تنعدم فيها القيم الفنية والجمالية واتسم شعر هذه المرحلة بالضعف والتخاذل، ممّا دفع بالنقاد إلى تسميتها بالفترة المظلمة التي استمرت قرابة ستة قرون».**(9)

2) **مطبوعة علمية في مقياس: النص الأدبي الحديث. للدكتوره: نسيمة كريبع، جامعة عبد الحفيظ بوصوف ميلة:**

تقول الأستاذة في مدخل المحاضرة الأولى من المطبوعة:« **خلّفت الدولة العثمانية آثارا سلبية على اللّغة العربية عموما**، واللّغة الشعرية خصوصا وذلك لما عرفه الشعر من ركاكة في التعبير على نطاق واسع جدا... كما **دخلت الحياة الأدبية في أواخر العصر العثماني مرحلة السذاجة**، بعد أن تحول نظم الشعر والإبداع إلى محاولات أقرب إلى الألغاز، والأحاجي المُوشحة بالمتاهات والفكر الرياضي ».(10)

3) **السند البيداغوجي لمقياس النص الأدبي الحديث، للدكتورة:حرة طيبي، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان:**

تقول الأستاذة في معرض حديثها عن مدرسة الإحياء والبعث: « عاش الشعر حالة من الجمود وذلك منذ وقوع بغداد سنة 1258م ودمشق سنة 1260م في أيدي الغزاة من أمثال هولاكو الذي قضى الخلافة العباسية وحرق المكتبات وهدم دور العلم ... **وبعد هذه الأحداث ضعفت الحياة الثقافية والأدبية وخاصة الشعر، وزاد الضعف الثقافي إلى أن وصل منتهاه إبان حكم الأتراك العثمانيين ».**(11)

4) محاضرات النص الأدبي الحديث، الأستاذ الدكتور: محمد بن الزاوي، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة.

يقول الأستاذ:« ظل البيت الذي شيده الجاهليون هو المثل الأعلى للعباسيين، بيد أن مقتضيات الحياة الجديدة تقتضي إعادة تأثيث هذا البيت، فحشدوا فيه أنماطا شتى من المعاني والأخيلة والفلسفات والحكم، وكانت الزخرفة منسجمة مع الأثاث وبدا الشعر العربي في عنفوان قوته وغناه. ثم أخذ البناء يتداعي بضعف الأمة العربية وخضوعها للأعاجم... فاستعجم الشعراء وخانتهم الأداة المعبرة، وأصبح همه النظم الذي لا روح فيه ولا معنى له، عباراته ركيكة تغلب عليه المحسنات البديعية فكاد الشعر العربي يلفظ أنفاسه الأخيرة حين ابتدأ العصر الحديث».(12)

5) محاضرات في مقياس النص الأدبي الحديث للأستاذ: فاطمة شريفي (قسم اللغة والأدب العربي جامعة ابن خلدون تيارت)

تقول الأستاذة فاطمة: « بعد سقوط بغداد عام 1285 وضياع الأندلس عام 1492م، صار الشاعر العربي غريب اليد والوجه واللسان هنا ضاع الشعر العربي أو كاد، وفقد رونقه الأصيل ... فالشعر العربي بدأ يجس ذبيبا عافية في بواكير هذا القرن العشرين، وأقول ذبيب العافية أو الانبعاث، فلا يمكن تجاوز هذه الفترة التي تدهور فيها حال الأمر من عزه وعلو شان إلى دويلات ومماليك متصارعة من أجل السلطة، فبعد الخراب الذي خلفه المغول أصبحت الأمة العربية وعلى ترميم ذاتها. يرى أحد الباحثين أن هذا الحكم في قطعه ومبالغته لا يمكن أن ينسحب إلا على بلدان مشرقي... فقد مر الشعر العربي النهضة العربية بمرحله نسميها بالضعف والوهن مس أنحاء الدولة العربية الإسلامية نواحيها المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية خاصه بعد سقوط بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية على يد التتار، وقد دام هذا الضعف والركود حوالي خمسة قرون».(13)

نقد وتوجيه:

بعد أن أتينا على بعض الاقتباسات من محاضرات في الأدب العربي وأغلبها يعتبر سندا علميا مرّ على لجان مختصة أجازت هذه الأعمال العلمية الموجهة للطلبة في مرحلة الليسانس يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

أ.أغلب السندات البيداغوجية التي تعرضنا بالدراسة لها تكاد تجمع على أن أدب العصر المملوكي العثماني أدب اتسم بالضعف والتخاذل والتكلف عبر عصوره المختلفة فأصبح (الشعر عبارة عن حلى لفظية خالية تنعدم فيها القيم الفنية والجمالية وقد دام هذا الضعف والركود حوالي خمسة قرون) وهذا ما لا نجيزه؛ فالأدب عرف النوعين – الجدة والرداءة-كغيره من الآداب وعلى مر العصور؛ عرف أجناسا وأغراضا أدبية وشعرية مختلفة، فعرف المديح، والغزل والهجاء والرثاء، والفخر والحماسة ..وغيرها، فكان الشعراء يقولون الشعر على السجية فهم «يكرهون التكلف والتزام الصنعة، واستخدام المحسنات اللفظية من جناس وطباق ومقابلة إلا ما أتى عفوا، ويفضلون أن يترك الشاعر نفسه على سجيتها ... »،[14] ومع ذلك فقد ابتلي الشعر بقوم دخلاء «ظنوا لضعف شاعريتهم أنهم قادرون على أن يكونوا في عداد الشعراء إذا تكلفوا القول، وأنفقوا الوقت الطويل في ضروب الصناعة اللفظية، وهؤلاء الدخلاء على الشعر قلة لا يعتد بها، ولا ينبغي أن تتخذ أساسا للحكم على العصر كله».[15]

ب. درج بعض الدارسين بوصف الحركة العلمية بالتخلف، وانحطاط مستوى الحياة الأدبية والثقافية، والقول بقلة شعراء هذه الفترة؛ وإن وجدوا فهم (شعراء شعب وشعراء بلاط أو ديوان، فندر المجودون منهم) و(انحطّ الذوق الأدبي) وهذا الموقف في حقيقته موقف يجافي الواقع وينقصه الدليل، لأنه و «بالرغم مما ذكره المؤرخون عن انتشار اللغتين الفارسية والتركية في العصر العثماني، وجهل السلاطين والحكام العثمانيين باللغة العربية، فإن الكثير من الأتراك والفرس تعلموا العربية؛ لأنها لغة الدين والثقافة الإسلامية، وقد أشار المحبي في كتابه خلاصة الأثر إلى العديد منهم فذكر قاضي العساكر محمد ابن أحمد بن مصطفى بن خليل الملقب بـ (طاشكبري زاده) وذكر مكانته العلمية، ومن العلماء أيضا الذين ترجم لهم المحبي: عبد الرحمان بن حسام الدين المعروف بحسام زاده الرومي... ليس هذا فحسب بل وجدنا العديد من السلاطين والحكام يتقنون العربية ويقرضون الشعر من ذلك أحمد بن محمد بن مراد زاده فقد كان مائلا إلى الأدب والمحاضرات... كما أشار المحبي أيضا في تراجمه إلى الكثير من العلماء والأدباء الذين أجادوا اللغتين وتأثروا بثقافة اللغتين كابن النقيب وبدر الدين البوريني

وغيرهم».[16] ويكفينا من ذلك مراجعة كتاب المحبي (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)، وكتاب شهاب الدين الخفاجي (ريحانة الألباب وزهرة الحياة الدنيا) لمعرفة حجم حركة التأليف وعدد الأدباء والعلماء في ذلك العصر.

ج. اتهام الدولة العثمانية بأبشع التهم؛ كونها خلفت آثارا سلبية على البلاد العربية (مس أنحاء الدولة العربية الإسلامية نواحيها المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية) وهذا محض افتراء؛ فقد استطاع العثمانيون تحويل إمارتهم الحدودية الصغيرة إلى دولة عظيمة مهيبة الجانب تتربع على عرش القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وتبسط نفوذ الإسلام على العديد من دول آسيا، وتتمدد في العديد من دول أوربا الصليبية وتنشر نور الإسلام فيها، ولعلنا نكتفي في ذلك بشهادة محمد قطب إذ يقول: « فأما من حيث صدق الرغبة في خدمة هذا الدين، وبذل الدماء والأموال في سبيل ذلك فإنا نجد فيهم ما لا يقل عن مرتبة التابعين رضوان الله عليهم، وكان جهدهم في الحقيقة امتدادا لجهد الصحابة والتابعين الذين حاولوا فتح القسطنطينية أول مرة على عهد الأمويين، ويكفيهم في ميزان حسناتهم أنهم توغلوا بأوروبا الصليبية ما توغلوا، وفتحوا للإسلام ما فتحوا من أراض وقلوب، فدخل الناس بعشرات الملايين... ويكفيهم في ميزان الله أنهم حتى وهم في النزع قد منعوا من قيام الدولة اليهودية على أرض الإسلام، ولم يتمكن شذاذ الآفاق من التجمع لإقامة دولتهم إلا بعد أن زالت دولة الخلافة من الوجود، كما أن احترامهم للعلم والعلماء من حملة هذا الدين مما يحسب لهم في ميزان الله».[17]

د. قولهم أن (الحياة الأدبية في أواخر العصر العثماني دخلت مرحلة السذاجة) قول صحيح إذا ما قارناه بالفترة الزمنية الطويلة التي شهدتها الدولة العثمانية، وعلينا أن نعرف أسباب ذلك والدوافع التي أدت إلى تحول نظم الشعر والإبداع إلى محاولات أقرب إلى الألغاز، والأحاجي المُوشحة بالمتاهات والفكر الرياضي، وكما يقال: إذا عرف السبب بطل العجب.

4. أثر هذه الشبهة على الأدب العربي عامة وطلبة قسم الأدب العربي في الجامعة خاصة:

من الآثار السلبية التي تركتها هذه الشبهة على الصعيدين الأدبي والفكري للمتلقي ما يلي:

أ. اعتقاد أغلب الدارسين والكتاب أن نابليون بونابرت جاء فاتحا وأنه كان سببا في تطور الإنسان العربي، وأن الحملات التنصيرية التي رافقته إلى مصر وبلاد الشام وما صاحبها من تعليم ودور نشر وبعثات علمية تسبّبت في صدمة وقفزة حضارية للبلاد العربية نتج عنها انبهار الشرق بالغرب. يقول عمر الدسوقي: «اصطحب نابليون معه كل عدد الاستعمار والاستغلال والإيقاظ،

وكانت دهشة المصريين جد عظيمة مما رأوا من مظاهر المدنية الجديدة...»،(18) والأدهى من ذلك أن الأستاذة فاطمة شريف كتبت تقول بأن: «من أبرز العوامل التي ساهمت في نهضة الامة العربية ويقظتها دخول الفرنسيين إلى مصر من خلال الحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت سنة 1798م (!!) فكان هذا أهم عامل ساهم في احتكاك العرب بالغرب مباشره واكتشاف مدى التطور الذي وصل اليه هؤلاء وتطوير حضارتهم وخروجهم من عصور سميت بالمظلمة».[19] وكذلك الحال بالنسبة للدكتور السعدي مسايل الذي يصف الاحتكاك الذي جرى بين الشرق والغرب بالنور الذي أنار الأذهان ورفعها فـ: « بقاء الحال على ما هو عليه أمر مستحيل، فقد انبعث نور غريب على الوطن العربي أنار الأذهان ورفعها إلى مستوى المجاري الفكرية والأدبية وذلك من خلال عملية الاحتكاك التي وقعت في الشرق والغرب ولا سيّما في لبنان ومصر».[20] بل إن هناك من الأساتذة من نقل الإجماع بأن تطور الأدب الحديث كان مع الحملة الفرنسية على مصر !!! فالنقاد بحسب فهمهم مجمعون على أن: « تطور الشعر العربي الحديث كان من بدء الحملة الفرنسية على مصر سنة1798م حتى الحرب العالمية الأولى التي انتهت بسقوط أكثر البلدان العربية تحت الاستعمار المباشر».[21]

وهذا في حقيقته أمر محزن، فقد يغفل هؤلاء الباحثون وغيرهم أن نابليون وزبانيته أثناء حملتهم على مصر والبلاد العربية جاءوا لنهب ثروات المصريين، وما حملات التعليم الحديثة التي أحدثوها إلا لغزو العقول وتغيير اتجاهاتها ونمط تفكيرها، فتركت فرقة وطائفية لا تزال البلاد العربية والإسلامية تعاني منها إلى يومنا هذا، فـ « الحملة كانت استعمارية، وليس للمستعمر الغربي مهما كانت نيته فضل على مستعمر بل العكس».[22]

ب. صورت المطبوعات العلمية والكتب التعليمية العصر العثماني في أبشع صور، فسَرَى اعتقادٌ راسخٌ بين الطلبة والباحثين مضمونه: أن العصر العثماني خال مما يصح أن يطلق عليه اسم الأدب، ولم ينجب من الشعراء من يستحق اسم الشاعر ولا من الكتاب من تجوز نسبته إلى الكتابة.[23]

ج. نظرة بعض الأكاديميين إلى أدب العصر العثماني على أنه - (أدب انحطاط وتكلف وأن لا أثر للحياة فيه؛ فهو لا يستحق البحث أو الدرس)، وأنه من «العبث أن يبحث شخص في هذه الدورة.. عن شاعر يقرأ شعره، فيراه يعبر عن عاطفة أو شعور واضح مستقيم، فقد تبلدت الخواطر»؛[24] بل إن بعض «المدارس والجامعات أعرضت عن تدريسه، واكتفت بما يردده أستاذ الأدب العباسي عن نهاية عصور القوة وبداية عصر الضعف، وما يردده أستاذ

الأدب الحديث عن موت الأدب في العصرين السابقين وبداية عصر البعث والإحياء»-[25] كل ذلك أدى إلى عزوف الكثيرين عن دراسة أدب هذه الفترة وتلقي مباحثها.

د.إن ما نلتمسه من إغفالِ عروض التكوين في مرحلة الليسانس لهذه الحقبة الزمنية -في مفردات مرحلة الليسانس خاصة- والتي انبرت لها لجان في التخصص وعبر سنوات عديدة لا نجد أثرا ولا إشارة للأدبين المملوكي والعثماني!! الأمر الذي شكل شرخا واضحا وجهلا فاضحا بهذه الفترة من التاريخ الأدبي لدى طلبة الليسانس خاصة؛ إذ يتخرج الطالب من قسم الأدب واللغة العربية وهو جاهل بحقبة أدبية امتدت لستة قرون، والسبب في ذلك راجع أساسا أن أساتذته تجاهلوا هذا الأدب متبعين مفردات منهاج غفل أصحابه عن قصد أو غير قصد له، فلم يولوه من الأهمية كسابقيه؛ بل إن منهم من مر عليه مرور الكرام ورماه بأبشع الأوصاف وأقبحها.

هـ. الانغماس المفرط والتبعية الواضحة لكل ما له صلة بالثقافة الغربية وآدابها في العصر الحديث عند بعض الدارسين أسهم في الانسلاخ الواضح عن الموروث العربي الإسلامي ؛ فـ «المسلمون منذ ذلك التاريخ وهم تبع ومستهلكون لسلع الغرب ولم يظهر بينهم من له نظرية في الاقتصاد ولا في السياسة ولا في الأدب، ولا في غيرها بشكل عام؛ بل مازالوا أو قُلْ: إننا ما زلنا نجتر ما يقال ».[26] وما المناهج النقدية الغربية عنا ببعيد.

5. خلاصة:

إنه لمن الخطإ المنهجي الجسيم أن تطلق أحكام جامحة، وأوصاف غير مقيدة ومنافية للموضوعية والدقة العلمية، وأن يعمم الحكم على الأدب العربي في العصر المملوكي والعثماني بالانحطاط والتكلُّف على مر العصور فيتحول الاستثناء إلى قاعدة والعكس، فيوصف عصر طويل ممتد زمانا ومكانا بأنه عصر انحطاط؛ فالحقبة العثمانية كغيرها من العصور التاريخية لها إيجابياتها وسلبياتها؛ فضلا عن أن إيجابيتها أكثر من سلبياتها فقد شهدت الدولة الإسلامية ازدهارا وتفوقا حضاريا (فكريا) وماديا ملموسين.

وفي خاتمة هذه الورقة البحثية نقول بأن الموروث الأدبي لا يزال يحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب وبخاصة في العصور الوسطى منها، ولعل ذلك يوكل إلى الباحثين والمختصين في هذا المجال، وأحسب أن الأستاذ الجامعي الحريص على التحقيق والتدقيق أولى من غيره بذلك، فهي رسالته التي حباه الله بها فحري به أن يحمل ثقلها وأن يتحمل عبئها ويتجشم عناء البحث فيها.

الهوامش:

1- ينظر: أحمد حامد حجازي، إنصاف أدبنا العربي في العصر العثماني، منتديات شبكة الألوكة، https://www.alukah.net/literature_language/0/5438/. 20220307.

2- تفصيل ذلك كله نجده في الكتب التي أرخت لهذه الفترة ينظر: تاريخ الأدب العربي العصر العثماني - د. عمر موسى باشا.

3- بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1989، ص: 33.

4- جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة الهلال، الفجالة، مصر ، 1912م . ج2، ص: 33.

5- أحمد عبد المقصود هيكل، تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف،القاهرة، مصر ، 1994، ص: 13.

6- محمود تيمور، الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1970 ص: 06.

7- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، مصر، ط11، ص: 387.

8- محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر في ألف عام - ج 03، عالم الكتب ص: 387.

9- موسى مبرك، محاضرات في مقياس النص الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات، موقع جامعة محمد لمين دباغين سطيف،

https://cte.univ-setif2.dz/moodle/course/view.php?id=419&lang=ar. ،التاريخ: 10.03.2022.

10- نسيمة كريبع، مطبوعة علمية في مقياس: النص الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات، موقع جامعة عبد الحفيظ بوصوف ميلة،

http://elearning.centre-univ-mila.dz/course/view.php?id=1361&lang=en،التاريخ: 10.03.2022.

11- حرة طيبي، السند البيداغوجي لمقياس النص الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2017/2016، ص04. https://faclettre.univ-tlemcen.dz/assets/uploads/DOCUMENT. التاريخ: 11.03.2022.

12- محمد بن الزاوي، النص الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، ص02. https://fac.umc.edu.dz/fll/images/cours-arabe21/L2 التاريخ: 11.03.2022.

13- فاطمة شريفي، محاضرات في مقياس النص الأدبي الحديث، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة ابن خلدون، تيارت، ص03.cours.pdf/dz.univ-tiaret.fll://http ،التاريخ: 12.03.2022.

14- محمد سيد كيلاني، الأدب المصري في ظل الحكم العثماني، دار الفرجاني، القاهرة، طرابلس، لندن، ص58.

15- المرجع نفسه،ص04.

16- نبيل خالد أبو علي، الأدب العربي بين العصرين المملوكي والعثماني، مؤسسة إحياء التراث،غزة، 2019،ص:51..53 .

17- محمد قطب، واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، السعودية، 1986، ص21، 22.

18- عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، دار الفكر العربي ، مصر، 2000، ج01، ص17.

19- فاطمة شريفي، محاضرات في مقياس النص الأدبي الحديث ، ص05.

20- السعدي مسايل، محاضرات مقياس النص الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات، موقع جامعة محمد لمين دباغين سطيف،https://cte.univ-setif2.dz/moodle/course/view.php?id=2423. التاريخ: 11.03.2022.

21- سمير بن نابت، محاضرات مادة النص الأدبي المعاصر، كلية الآداب واللغات، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر. 2020/2019، ص01.

22- علي طرش، النص الأدبي الحديث(محاضرات)، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة قالمة، الجزائر. 2020/2019، ص08.

23- ينظر: محمد سيد كيلاني، الأدب المصري في ظل الحكم العثماني،ص04.

24- عزّاني العارم، محاضرات في مقياس النص الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات، موقع جامعة محمد لمين دباغين سطيف. https://cte.univ-setif2.dz/moodle/course/view.php?id=359. التاريخ: 10.03.2022.

25- نبيل خالد أبو علي، الأدب العربي بين العصرين المملوكي والعثماني، ص: 04.

26- علي طرش، **النص الأدبي الحديث(محاضرات)**. ص08.

قائمة الصادر والمراجع:

1. أحمد حامد حجازي، إنصاف أدبنا العربي في العصر العثماني، منتديات شبكة الألوكة.
2. أحمد عبد المقصود هيكل، تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف،القاهرة، مصر ، 1994.26-
3. بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1989.
4. جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج2، مطبعة الهلال، الفجالة، مصر ، 1912م .
5. حرة طيبي، السند البيداغوجي لمقياس النص الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2016.
6. السعدي مسايل، محاضرات مقياس النص الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات، موقع جامعة محمد لمين دباغين سطيف.
7. سمير بن نابت، محاضرات مادة النص الأدبي المعاصر، كلية الآداب واللغات، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر، 2020/2019.
8. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، مصر، ط1.
9. عزّاني العارم، محاضرات في مقياس النص الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات، موقع جامعة محمد لمين دباغين سطيف.
10. علي طرش، النص الأدبي الحديث(محاضرات)، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة قالمة، الجزائر، 2020/2019.
11. عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ج1، دار الفكر العربي ، مصر، 2000، ج01.
12. عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي العصر العثماني، د ار الفكر المعاصر– بيروت ، 1989م
13. فاطمة شريفي، محاضرات في مقياس النص الأدبي الحديث، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة ابن خلدون، تيارت.
14. محمد بن الزاوي، النص الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة.
15. محمد سيد كيلاني، الأدب المصري في ظل الحكم العثماني، دار الفرجاني، القاهرة، طرابلس، لندن.
16. محمد قطب، واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، السعودية، 1986.
17. محمود تيمور، الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1970 .

18. موسى مبرك، محاضرات في مقياس النص الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات، موقع جامعة محمد لمين دباغين سطيف.
19. نبيل خالد أبو علي، الأدب العربي بين العصرين المملوكي والعثماني، مؤسسة إحياء التراث،غزة، 2019.
20. نسيمة كريبع، مطبوعة علمية في مقياس: النص الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات، موقع جامعة عبد الحفيظ بوصوف ميلة.